مفتاح شخصيته

تقدمت الإشارةُ إلى قصة الشبهِ القريب بين خالد بن الوليد وعمر بن الخطاب في ملامح الوجه وطولِ القامة ، وأنهما كانا من التقارب بحيث يشتبه الأمر على قصير النظر وهو يتكلم إليهما ، فيخاطب عمر بن الخطاب وهو يظن أنه يخاطب خالد بن لوليد .

ويلوح لمن يقرأ سيرة الرجلين أن الشبه بينهما يتعدى الملامح والقامةَ إلى معالم الشخصية وطبائع القوة النفسية ، فكلاهما يجوز أن يقال فيه إنه «جندى» بالفطرة ، وإن «مفتاح شخصيته» هو السليقةُ الجندية ، فإذا أحضرنا فى أخلادنا كلمة «الجندى» أو الجندى المطبوع لم نجد فى ابن الخطاب ولا فى ابن الوليد صفةً لا تحتويها هذه الكلمةُ فى معنى من معانيها . .

وبين الرجلين فارقٌ لا خفاء به فى الخُلُقِ والتفكير .

لكنه فارق لا يخرجُ بهما من نطاق هذه الطبيعة ، فكلاهما جنديٌّ مطبوعٌ على الخلائق الجندية . ولكن ابن الخطاب تغلبُ عليه ، من مزاج الجندى ، ناحيتُه الروحية أو ناحيةُ الضمير ، وابنُ الوليد تغلِبُ عليه من هذا المِزاج نفسِهِ ناحية الحيويَّةِ أو ناحية البنيان والتركيب .

وأصحُّ من هذا أن نقول إن عمر كان جنديًّا فى أخلاقه الوازعة[1] الحاكمة ، وأن خالدًا كان جنديًّا فى أخلاقه الدافعة الهاجمة . وفى الجنود ، كما لا يخفى ، هذه الأخلاق وهذه الأخلاق .

ولا ريب أن هذا الفارق بين الفاروق وسيف الله إنما هو قبل كل شىء فارقٌ بين نفسين ، أو بين رجلين ، أو بين « شخصيتين » .

لكن هذا لا يمنع أن يكونَ فى الوقت نفسِه فارقاً بين « قبيلتين » وبين أسرتين وبين نشأتين . . فإن الفوارق بين بنى عدىٍّ قبيلة عمر وبين بنى مخزوم قبيلة خالدٍ لخليقةٌ أن تتجه بالمزاج المتقارب وجهتين متباينتين .

فبنو عدى — آلُ عمر — كانوا فى الجاهلية أهل تحكيم ومعرفة بالفصل فى الخصومات ، وقد ذاقوا ، كما قلنا فى « عبقرية عمر » : « طعم الظلم من أقربائهم بنى عبد شمس ، وكانوا أشداء فى الحرب يسمُّونهم لَعقة الدم ، ولكنهم غُلبوا على أمرهم لقلة عددهم بالقياس إلى عدد أقربائهم . . فاستقر فيهم بُغْضُ القوىِّ المظلوم للظلم ، وحبُّه للعدل الذى مارسوه ودربُوا عليه . . »

أما بنو مخزوم — آلُ خالد — فكانوا — على خلاف ذلك — أهل

(١) الوازعة : يقال « وزعه » أى كفه ومنعه ، أو زجره ونهاه .

حرب وسطوة وأصحاب ثراء ورخاء ، وكانوا فى الجاهلية موكّلين بالخيل والسلاح ، معتزين بالعتاد التليد ، والعُدَّة والعديد .

وكان ثراؤهم يُمْلِى لهم[1] فى أسباب الترف والنعيم ، كما تُملى لهم فيه مزيةٌ أخرى من المزايا التى تكفُلُها للقبيلة عزةُ السلطان وطولُ العهد بالحضارة والرئاسة ، وتلك المزيةُ هى جمالُ النساء .

فقد كان يقال إن « المخزوميات » رياحينُ العرب .

وكان فى رجالهم ذلك الغَزَلُ الذى أخرج منهم شاعره الأول عمر بن أبى ربيعة ، بل أخرج منهم غِزلين ظرفاء حتى فى النُسَّاك والأتقياء . .

جاء فى كتاب الأغانى عن أبى السائب المخزومى : « أنه كان رجلا صالحاً زاهدًا متقلِّلا[2] يصوم الدهر ، وكان أرقَّ خلقِ الله وأشدَّهم غَزَلا . فوجَّه ابنه يوماً يأتيه بما يُفطر عليه ، فأبطأ الغلام إلى العَتَمة . فلما جاء قال له : يا عدوَّ نفسِه ، ما أخَّرك إلى هذا الوقت ؟ . . قال : جُزْتُ بباب بنى فلان فسمعتُ منه غناء فوقفتُ حتى أخذتُه ، فقال : هاتِ يا بنى ، فوالله لئن كنت أحسنت

(١) يملى لهم : يطيل و يوسع لهم .
(٢) متقللا : يعيش على القليل من الزاد .

لأَحْبُوَنَّك[١] ، ولئن كنت أسأت لأضربنَّك . فاندفع يغنى بشعر كُثَيِّر :

ولما علَوْا شَغْبا تبيَّنْتُ أنه
تقطَّع من أهلِ الحجاز علائق[٢]
فلا زِلْن حسْرَى ظُلَّعاً لِمْ حملْنَهَا
إلى بلدٍ ناءٍ قليل الأَصادق[٣]

« فلم يزلْ يغنِّيه إلى نصف الليل . فقالت له زوجتُه : يا هذا ، قد انتصف الليلُ وما أفطرْنا . قال لها : أنت طالقٌ إن كان فُطورُنا غيرَه . فلم يزل يغنيه إلى السَّحر . فلما كان السَّحر قالت زوجتُه : هذا السَّحرُ وما أفطرْنا ، فقال : أنتِ طالق إن كان سحورُنا غيره . فلما أصبح قال لابنه : خذ جُبَّتى هذه وأعطنى خَلَقَك[٤] ليكون الحِباءُ[٥] فضل ما بينهما . فقال له يا أبت ...

---

(١) لأحبونك : لأكافئنك .

(٢) شغباً : منهل بين مصر والشام . والعلائق : جمع علاقة .

(٣) ظلعا . . . إلخ ، ظلع : جمع ظالع ، وهو الذى يعرج ويغمز فى مشيه ، وحسرى جمع حسير وهو المتعب الذى أصابه الإعياء ، والأصادق جمع الجمع لكلمة صديق ، والحديث عن الإبل التى حملت المحبوبة ، وتعبير الشاعر « فلا زلن حسرى ... إلخ » دعاء على الإبل بأن يصيبها الإعياء والظلع لأنها حملت محبوبته إلى بلد ناء قليل الأصدقاء .

(٤) خلقك : أى ثوبك الخلق ، و« الخلق » هو القديم البالى .

(٥) الحباء : العطاء الذى تعطيه من غير عوض .

أنت شيخٌ وأنا شاب ، وأنا أقوى على البرد منك . قال : يا بنى ... ما ترك صوتُك هذا للبرد علىَّ سبيلاً ما حييت » .

واطَّرِحْ كلَّ ما فى هذه القصة من المبالغة والإغراق تَبْق منها بقيةٌ كافية لبيان مكان الغَزَلِ من نُسَّاك بنى مخزوم ، فضلا عن الشعراء والظرفاء .

وندعُ القبيلةَ إلى الأُسرة فيتراءى لنا فى النظرة الأُولى ذلك الاختلافُ الذى لا بد منه بين معيشة الخطاب ومعيشة الوليد ، أو بين معيشة الرجل الكادح لنفسه الخشِن فى ملمسه ، وبين معيشة الرجل المترف الفخور بالمال والبنين ، والجاه المكين .

لكنه مع هذا فرقٌ فى المعيشة لا يتغلغل إلى بواطن الطباع . إنما الفرقُ المتغلغلُ إلى بواطن الطباع ، بل إلى أعمق أعماقها ، هو فرق البِنْية العصبية بين أبناء الخطاب وأبناء الوليد .

فمن أوصاف أبناء الوليد عامةً ينكشف لنا «قلقٌ عصبى» فى هذه الأُسرة قد تطرَّف جدَّ التطرفِ فى أفراد منها ، واعتدل بعضَ الاعتدال فى آخرين . .

فعمارةُ بن الوليد هو الذى بلغ منه الاضطرابُ أن يراودَ امرأةً

فى محضَرِ زوجها[١] ، وأن يجترئ على حرمِ النجاشىِّ بالمغازلة ، ثم يجترئ بالتحدث عن هذه المغازلة حديث الفخر والمباهاة ، ثم ينطلق مع الأوابد[٢] فى الآجام بفعل السواحر كما قيل ، وهو قولٌ لا يخفى مدلولهُ فى لغة العصر الحديث . .

وذُكر عن خالد كما ذكر عن أخيه الوليد أنه كان يتفزَّع فى نومه فذاك أثرٌ من آثار « أعصاب الأُسرة » كلها على ما هو واضح من جملة المشاهدات فى أبنائها ، وإن كان يجمح بهم فى حين ، ويكبح فى حين . .

وقد كان خالد يغضبُ فَيُنْتَقَعُ لونه[٣] كما جاء فى كتب الفتوح من حديث المغاضَبة بينه وبين أبى عبيدة بعد تسليم دمشق ومصالحةِ أهلها . وقد كانت عِلَّةُ المغاضبة أن أبا عبيدةَ يحسِبُ التسليم صلحاً وخالدًا يحسِبه غَلَبا يحق فيه على المغلوب جزاءُ السَّبْى والاغتنام[٤] والقِصاص .

وكانت فى خالد حِدَّة يملكها أو تملكه آونة بعد آونة . وفى

---

(١) هى زوجة عمرو بن العاص ، وارجع إلى القصة ،فى ص ٤٥ ، ٤٦ وهامشهما .

(٢) الأوابد : الوحوش تعيش بعيدة عن الإنس .

(٣) ينتقع لونه : يتغير . مثل « يمتقع » بالبناء للمجهول .

(٤) الاغتنام : الحصول على الغنيمة .

القليل الذى بلغنا إشارةٌ إلى الكثير الذى لم يبلغنا . فقد غاضب أبا عبيدةَ وغاضب عبد الرحمن بن عوف وغاضب عمار بن ياسر . وقال له عمَّارٌ وقد سمع منه ما ساءه : «لقد هممْتُ ألا أكلمك أبدًا» . فأصلح بينهما النبيُّ عليه الصلاة والسلام وهو يقول لخالد : «يا خالد ... مالَكَ ولعمار .. رجلٌ من أهل الجنة قد شهد بدرًا» ثم يقول لعمار : «إن خالدًا يا عمار سيفٌ من سيوفِ الله على الكفار» .

فهذا الفارقُ بين الأُسرتين ، وذلك الفارق بين القبيلتين ، مُفَسِّران صالحان لاختلاف لونْ «الجندية» فى شخصية الرجلين العظيمين . عمرُ إلى الجندية الموزوعة ، وخالد إلى الجندية المدفوعة[1] ، وعمر إلى الشظف المختار ، وخالد إلى المتاع المباح .

ولا يرد إلينا العجب بعد هذا أن يكون شعورُ خالد بالمرأة هو شعورُه ذاك الذى أهدفه[2] للملاحظة والمؤاخذة مرات ، وجعل من مؤاخذيه أرغب الناس فى عُذره والثناء عليه ، ونعنى به الخليفةَ الصدِّيق .

---

(١) الموزوعة والمدفوعة : إشارة إلى ما سبق أن قاله المؤلف فى ص ١٦٣ عن الأخلاق الوازعة ، والأخلاق الدافعة .

(٢) أهدفه : جعله عرضة .

وقد كان هذا الشعورُ يلازمه ما يلازم أبناء الثراء من حب الرفاهية وبهجة الحياة . فلم يفرغْ من الحرب قطُّ إلا انقلب منها إلى وادٍ ظليل فى صحبة زوج محببةٍ إليه . فقضى فى وادى الوبر باليمامة أيام الدَّعة بين زوجيهِ بنت مجَّاعة وبنتِ المنهال . واستطاب المُقامُ بحمص بعد العزل وآثره على المقام بالحجاز . وأغضب الفاروق لأنه « كان يدخلُ الحمَّام فيتدلك بعد النُّورة[1] بشخين معجون بخمر » ، فلما لامه الفاروقُ فى ذلك قال : إنا قتلناها فعادت غَسُولا غير خمر[2] ، ثم قال يخاطب عمر :

سَهِّلْ أبا حفْصٍ فإن لديننا
شرائع لا يشقى بهن المسهِّلُ
وهل يُشْبِهنْ طعمُ الغسولِ وذوقهُ
حُمَيَّا الخمورِ والخمور تَسلْسلُ[3]

وفى كل أولئك هو سليلٌ حق لبنى مخزوم ولبيت الوليد ،

---

(١) النورة : حجر الكلس ، ثم غلبت على أخلاط تضاف إلى الكلس من زرنيخ وغيره وتستعمل لإزالة الشعر .

(٢) الغسول : الماء الذى يغتسل به ، وقوله (قتلناها) ، أى مزجناها بالماء حتى ضعفت و زال تأثيرها وأصبحت كالماء .

(٣) حميا الخمر : شدتها وحدتها ، والخمر المسلسلة : اللينة التى تتسلسل فى الحلق إذا شربت .

وتُرْجُمانُ صدق لتلك البنية العصبية المتفزِّزة[1] التى تجنَح به إلى المتعة فى أيام الدَّعة .كما تجنح به إلى البطْش فى مقام الجِلاد والعناد ، وتفسِّر لنا الجندىَّ الذى تميل به القوةُ الحيوية تارةً إلى لقاء الحِسان ، وتارة إلى لقاء الأقران .

وهو نفسُه قد أبان عن طويَّته كلِّها غير عامدٍ حين قال : «ما ليلةٌ يُهْدى إلىَّ فيها عروسٌ أنا لها مُحب ، أو أُبشَّرُ فيها بغلامٍ أحبَّ إلىَّ من ليلة شديدة الجليد فى سريَّةٍ من المهاجرين أصبِّحُ بهم العدو ، فعليكم بالجهاد » . .

فالحرب عنده اشتهاء ، والعروسُ عنده غايةُ المتاع .

والحرب فى رأية حَسناءُ تُشْتَهَر أبدًا ، ولا تشيبُ كصاحبة الزُبَيْدِىِّ تكون فى مبدئها «فَتيَّة تسعى بزينتها لكلِّ جهولٍ »[2] ثم تصبح :

شمطاءَ جَزَّتْ شعرَها وتنكَّرَتْ

مكروهةً للشم والتقبيلِ

---

(١) المتفززة : النشيطة المتوقدة .

(٢) أصل البيت :

الحرب أول ما تكون فتية تسعى بزينتها لكل جهول

وهو يشبه فيه الحرب فى أولها بفتاة تجتذب الجهلاء بزينتها ، حتى إذا تكشفت عن ويلاتها أصبحت عجوزاً شمطاء لا تشتهى .

وأيًّا كانت مُتعتُه بالمرأة الحسناء أو بالمقام الوثير فهى متعة القوى اليقظان ، وليست بمتعةِ الضعيف المستنيم .

هى متعة المسافر الذى يستريح إلى الواحة لينفُضَ عنه الجهد ويتزوَّدَ منها لجهد جديد ، وليست متعةَ المتهافِت الذى يتزوق إلى مهاد الراحة لينغمسَ فيها ويستكين إليها ولا يفيقُ من سَكْرتها .

بل هو يحب المتعة لأنه يحب الجهاد ، فإذا طالت عافها وبَرِم بها واجتواها[1] ، وأنف أن يقنع بها ويستمرتَها .. فلم يُطق سنةً واحدة بالحيرة بين حروب فارس وحروب الروم ، وسماها «سنةَ نساء» لأنها كانت سنةَ راحة من العناء . . مع أنها كانت راحةَ المتربِّص المتوفز[2] ، وكانت راحةً تتخللها وثباتٌ وضربات من هنا وهناك . .

وهكذا كان يأخذ من المتعة بأيسر المقادير ، ليأخذَ من الشدة والبأس بأوفر المقادير . .

لأن طبيعته القوية هيأته للشدة والبأس قبل كل شىء ، وما بقى من الطبيعة للرياضة فقد أتمَّتْهُ الرياضةُ بعزيمة الجبابرة التى

---

(١) اجتواها : كرهها .

(٢) المتوفز : المتربص المتحفز .

لا تلين « باستمراء مالا مراءة فيه[١] من طعام وشراب ، وبأكل الضَبِّ وشُرب السم ومطاولةِ الركوب أياماً بعد أيام[٢] .

لا جرَمَ يكونُ أكبر الأسى لتلك النفس فى ساعة الموت أنها تموت على الفراش أو على حد قوله كما يموت البعير : « لقد طلبت القتلَ فى مظانِّه ، فلم يُقَدَّرْ لى إلا أن أموت على فراشى ...

ولقيت الزحوفَ وما فى جسدى شِبر إلا وفيه ضربةٌ بسيف ، أو رميةٌ بسهم ، أو طعنة برُمح ، وها أنا أموت على فراشى حَتْفَ أنفى[٣] كما يموت البعير ، فلا نامت أعينُ الجبناء » . .

وأقرب شىء أن يلاحظ فى سيرة خالد – من نشأته إلى وفاته – أن هذا الولعَ كله بالحرب لم يكن ولعاً بالشر والسوء ، ولا ولعاً بالضغينة والبغضاء ، فكانت عداواته كلها عداواتِ جندى مقاتل ، ولم تكن عداواتِ مضطغِن[٤] آثم . ولم يُعرف قط عنه أنه حمل الضغينةَ لأحد من الناس . ولو أنه أضْطَغَنَ على أحد لكان أحقَّ

---

(١) مراءة : يقال « مرأ الطعام » أو « مرئ » أى ساغ ، فهو مرئ . واستمراء الطعام : استساغته .

(٢) ارجع إلى ص ٥٦ .

(٣) مات حتف أنفه : أى مات على فراشه بلا ضرب أو قتل ، والحتف : الهلاك

(٤) مضطغن : حاقد .

الناس أن يضغِنَ عليه عمرُ بن الخطاب ، لأنه عزله وشَطَرَ[1] ماله وأبقاه فى العُزلة سنوات ، ولكنه لم يعمل عملا واحدًا ولم يقل كلمة واحدة تدل على ضِغْن عليه . وقد سامحه والتمس له المعذرةَ ، وعلم أنه قد أراد وجهَ الله بما حاسبَه عليه ، وكان أشدَّ ما قاله فيه : « الحمد لله الذى قضى على أبى بكر بالموت ، وكان أحبَّ إلىَّ من عمر » والحمد لله الذى ولَّى عمر ، وكان أبغضَ إلىَّ من أبى بكر ، ثم ألزَمنى حُبَّه » . وربما ذكره وهوغاضب فسماه « الأُعيْسِر ابن أم شَملة » فكانت هذه الكلمةُ أدلَّ على التحبب منها على الكراهة ، ولاحت كأنها كلمة المغلوب فى لُعبة لا فى غرض عظيم يُقعد ويُقيم .

وقد يمكن كثيرًا أن تتسع هُوَّة البعد بين الولع بالحرب والولع بالشر والضغينة ، وإنها لأَوْلى أن تتسعَ بينهما حيث تكون الحرب ميدانَ التضحية والفداء فى سبيل الغَيْرة القومية ، أو فى سبيل الإيمان والضمير ، وحيث يكون الرجل قد تربى على مِراسِها[2] ، وطُبع فى نفسه على مِزاح يألَفُ القتال ولا ينفر منه ، وليس فى المجتمعات الإنسانية التى تصبح الحربُ فيها ضرورةً من ضرورات

(١) شطر ماله : قاسمه ماله فأخذ نصفه وترك له نصفه .
(٢) مراسها : ممارستها .

الحياة والشرفِ باعثٌ إلى النُّفرة من القتال ، ولن تزالَ القدرةُ على الحرب شرفاً وشجاعة إلى آخر الزمان ، ما دام فى بنى الإنسان مَن يحمل السلاح للعدوان والبغى والتلصُّص والمراء ، فيتقيه بنو الإنسان بمى يحمل السلاحَ للحقِّ والعقيدة والإنصاف .

وعلى كثرة مَن قَتَل خالد فى حروبه لم يكن يقتُل أحدًا قطُّ. وهو يشك فى صواب قتله وإن أخطأ وجهَ الصواب . فالقتلى الذين طاحت بهم سيوف الجلادين بأمره فى «نهر الدم» كانوا يستحقون عنده القتلَ قرباناً إلى الله وجزاء لهم على عناد الشرك والإصرار .

أما إذا شك فى صوابه فهو يستكثرُ المساءة إلى رجل واحد فضلا عن الجحافل والقبائل ، ويسبق إلى الرفق رجلا كأبى عبيدةَ عُرف طَوالَ حياته بالرفق والرحمة والأناة . فيقول له وقد تناول رجلا بشىء : «إنى لم أردْ أن أغْضِبَك . ولكنى سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : إن أشدَّ الناس عذاباً يومَ القيامة أشدُّ الناس عذاباً للناس فى الدنيا» . .

فهو مطبوع على عِداء الجندى المقاتل وليس بالمطبوع على عِداء الدسيسة والشرِّ فى صغائر العيش وسفاسف الأمور .

كذلك لا يُفهم من ولعه بالحرب على هذه الصفة أنه كان مُبتلىً

بذلك الولع الأهوج الذى يُبْلَى به من لا يعقلون هجوماً إلا كهجوم الريح أو فراراً إلا كفرار الحيوان .

فقد كان يُقدِم عن علم بمواضع الإقدام ، ولذلك لم ينهزم قط وهو مسئول عن الهزيمة . . وإنما هُزم فى حنين مرة واحدة وهو مسئول عن اليوم كلِّه كما قدمناه .

أما إذا وجب التراجعُ فالشجاعةُ كلُّ الشجاعة عنده أن يؤْمن بهذه الحقيقة ، وأن يدبِّر أمر التراجع بعد ذلك على النحو الذى يصون الكرامةَ ويصون الدماء ، ويكون المخدوعُ المغلوبُ فيه هو الذى أمكن التراجعُ من بين يديه ، وقد كان فى وسعه أن يبطش بالمتراجعين جميعاً قبل أن يفلتوا من أوهاقه[1] المُطْبِقة عليهم .

هذه هى الجندية البصيرة بمزاياها فى الكفة الراجحة والكفة المرجوحة ، أو هذه هى الجندية الغالبة أبدًا وهى فى إقدام أو فى إحجام

ولقد كادت هذه الطبيعة الجندية أن تحيطَ بكل ما رُزق من طبيعة حيَّة . فمن أقواله : إن الجهاد شغلنى عن تعلُّم القرآن ، أو قراءة كثيرٍ من القرآن . .

---

(١) أوهاقه : الأوهاق جمع « وهق » وهو الحبل فى أحد طرفيه أنشوطة يطرح فى عنق الدابة أو الإنسان حتى يؤخذ .

وعذره فى ذلك حين قال ذلك المقال أنه لم يقض فى ملازمة النبى غير أوقاتٍ جِدٍّ قصار ، لأنه شغَل السنواتِ الثلاثَ التى قضاها مع النبى بعد إسلامه وهو بين السرايا والغزوات .

وقد كان يخطب ويكتب ويقول الأبياتَ من الشعر والرجز على مثال ما قدمناه . ولكنها الخطبُ والكتبُ التى يستطيعها العربى الفصيح الناشئ فى كَنَف الفحصاء ، ثم هى كلها ملحقة بوظيفة الجندية فيه ، فإذا قال كلمةً أو كتب سطرًا فكأنما يكتب بحسام لا بِيَراع .

كتب إلى مرازبة فارس فقال : « الحمد لله الذى فضَّ مُلْكَكم ، وأذلَّ عِزَّكم ، فإذا أتاكم كتابى هذا فابعثوا إلىَّ الرهْن واعتقدوا منا الذِمَّة[1] وأجيبوا إلى الجزية ، وإلا واللهِ الذى لا إله إلا هو لأسيرنَّ إليكم بقوم يحبون الموت كما تحبون الحياة ، ويرغبون فى الآخرة كما ترغبون فى الدنيا » . .

وخطب فى المسلمين وقد تهيَّبوا طُروق المفازة من العراق إلى الشام : فقال : « لا يختلفنَّ هديُكم ، ولا يضعفنَّ يقينُكم ،

(١) اعتقدوا منا الذمة : يقال « اعتقد الأمر » أى صدقه وعقد عليه قلبه ، والذمة : العهد والأمان والكفالة ، وكان المسلمون يعاهدون أهل الذمة على أن يؤمنوا أموالهم وأعراضهم ودينهم .

واعلموا أن المعونةَ تأتى على قدر النية ، والأجر على قدر الحسنة ، وأن المسلم لا ينبغى له أن يكترث لشىء يقع فيه مع معونة الله له » .

ويسمع الكلمة فيردها بالجواب المُسكت كأنه يتلقى ضربةَ سيف بضربة سيف ، كما قال حين سمع صائحاً فى المعسكر يصيح : ما أكثر الروم وأقلَّ المسلمين . .

فلم يكن أسرع منه إلى أن يقول : «بل ما أقلَّ الروم وأكثر المسلمين . إن الجيوش إنما تكثر بالنصر وتقل بالخِذلان » .

فكل كلمة منه فإنما هى ضربةُ سيف فى صورة حروف ونَبرات .

ومن الملاحظات الجديرة باستقراء علم النفس أنه على التشابه بينه وبين عمر كان فى عمر جانبُ فكاهةٍ وإن كانت خشنةً غليظة ، ولم يكن فيه هو مثلُ هذا الجانب فى عملهِ أو كلامه .

وقد كان الأدنى إلى الظن — عند النظرة الأولى — أن تنموَ الفكاهةُ مع الرجل الذى نشأ فى مهد اليسار[1] ، ولا تنمو مع الرجل الذى نشأ على العُسر أو اليُسر القليل .

لكنها النظرة الأُولى ولا تتعداها .

لأن الإعسار فى الواقع أعون على الفكاهة من اليسار ، ومن هنا

(١) اليسار : الغنى ، والإعسار : الفقر .

كان ولعُ الناس بالفكاهة فى أيام الحروب وأزمات الشدة ومظالم الاستبداد ، كأنها ضرب من التعويض والمقابلة ، ولا غرابةَ فى ذلك حيث ننظر إلى منشإ الفكاهة فى جملتها ، فهى على أكثرها وليدةُ المفارقة بين الحالات وليست وليدةَ الموافقة الموائِمة . وما أكثر المفارقات فى حياة المُعْسِرين .

ولعلنا نبلغ مقْطَع القولِ[1] فى هذه الملاحظة حين نقول : ان الموسر أقدرُ على التسلية والمعسر أقدرُ على الفكاهة ، وبين التسلية والفكاهة فرقٌ غير مجهول . . رحم الله خالدًا . . إنه كان جنديًا وكَفَى !

لكنه قد عُوِّضَ فى جانبه الواحد عن جوانب عدةٍ فى الآخرين ، لأنه قد رُزِق الجنديةَ فى طرازها الأول ، ورُزق منها وحده ما يكفى عشرةً من جنود التاريخ المبرَّزين .

---

(١) مقطع القول : القول القاطع .